

مَعْوِلُ الزَّمْنِ الْأَتَيِ بِسْرِيُّ الْأَيُوبِي

أَحَبَّ مَعْوِلَ مَنْشَارَةَ مِنَ النَّظِيرَةِ الْأُولَى لِأَنَّ لَهَا أَسْنَانًا مَنْتَظَمَةً مَزَكَّةً حَادَةً. وَلَقَدْ تَوَلَّهُ بِهَا حِينَ رَأَاهَا ذَاتُ يَوْمٍ أَخْذَةً فِي قَضْمِ جَذْعِ شَجَرَةِ مَسْنَةٍ نَخْرَةً، وَقَالَ لِنَفْسِهِ:

- هَذِهِ رَفِيقَةُ حَيَاتِيِّ، إِنَّهَا تَفْهَمُنِي، إِنَّهَا تَسْمَعُ شَكْوَاهِي، إِنَّهَا تَكْدِحُ مَثْيِي، إِنَّهَا تَعْشَقُ الزَّمْنَ الْأَتَيِ.

كَانَتِ الْغَابَةُ صَاحِبَةً بِأَصْوَاتِ الْفَؤُوسِ تَنْقَضُ عَلَى جَذْعِ الشَّجَرِ الْفَارِعِ، وَالْتَّمَعَتِ مَنْشَارَةً حَادَةً النَّصْلِ تَنْشَرُ الْخَشْبُ وَتَعْدُهُ لِلنَّقْلِ عَبْرَ النَّهَرِ. وَجَلَسَ الْمَعْوِلُ يَرْقَبُهَا ذَاهِبَةً أَلَّا تَكُونَ مِنَ الْعَمَلِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

- الْحَبِيبَةُ الصَّغِيرَةُ، لَيْسَ لَهَا وَقْتٌ لِلرَّاحَةِ، لَيْسَ لَهَا وَقْتٌ لِلْحَلْمِ.. كَمْ أَشْتَهَيْ أَنْ نَجْلِسَ مَعًا وَنَتَسَامِرُ، أَحْدَثُهَا عَنْ نَضَالِ عَشِيرَتِي الْوَفِ الْسَّنِينِ.. كَمْ شَفَقْتُ مِنْ أَرْضِ وَكَمْ عَبَدْتُ مِنْ طَرِيقِ.. وَمَعَ ذَلِكَ تَعْيِشُ فِي شَظْفٍ وَتَرْضَى بِالْفَلَلِ.. لِمَاذَا لَا يَقْرَرُ أَحَدُ النَّضَالِ الصَّامِتِ الْيَوْمَيِّ؟ لِمَاذَا كَتَبَ التَّارِيخُ حَافِلًا بِقَصْصَ السَّيُوفِ الْمَرْصُوعَةِ النَّبِيلَةِ، وَالْأَرْضِ الرَّطِبَةِ بِالدَّمَاءِ، وَلَا تَفْخُرُ بِالْمَعْوِلِ الْكَادِحَةِ الَّتِي تَنْتَرِكُ الْأَرْضَ جَنَانًا؟

كَانَتِ الْمَعْوِلُ أَوْقَاتٍ فَرَاغٍ يَتَأْمِلُ فِيهَا مَاضِيهِ وَحَاضِرِهِ، فَعَمَلَهُ مُوسَمِيُّ، وَأَوْقَاتٍ رَاحِتَهُ طَوِيلَةً، وَكَانَ يَتَهَفَّ على اِنْقَضَاءِ النَّهَارِ وَمُجِيءِ اللَّيلِ إِذْ فِيهِ وَحْدَهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ مَنْشَارَتِهِ الْعَزِيزَةِ الَّتِي تَقْرَبُ مِنْهُ بِرَقَّةٍ، وَتَمِيلُ بِرَأْسِهَا عَلَى كَتْفَيِهِ الْعَرِيضَتَيْنِ وَتَحْدُثُهُ قَلْبِيَاً عَنْ أَحَدَاثِ يَوْمَهَا، وَكَيْفَ كَانَ يَدُ الْحَطَابِ قَاسِيَّةٌ عَلَيْهَا، وَكَيْفَ أَنَّهَا أَوْشَكَتْ أَنْ تَفْقَدْ سَنًا مِنْ أَسْنَانِهَا، وَلَا تَلْبِسْتَ أَنْ يَغْلِبَهَا النَّعَاصِ فَتَنَامَ.. كَانَتِ هَادِئَةً لَا تَعْرِفُ النَّقْمةَ، وَلَا تَتَأْسِي لَحَالَهَا، وَلَا تَتَحَدَّثُ بِمَرَارَةِ، وَلَا تَغْبَطُ الْآخَرِينَ عَلَى حَظْوَظِهِمْ، وَعِنْدَمَا يَنْفَجِرُ الْمَعْوِلُ غَاضِبًا تَقُولُ لَهُ مَهْدَئَةً، وَابْتِسَامَةً فِيمَهَا الرَّحْبُ تَكْشِفُ عَنْ كُلِّ أَسْنَانِهَا النَّضِيدَةِ الْلَّامِعَةِ:

- إِنَّ مَنْ يَسْتَحِقُ الْإِحْتِرَامَ هُوَ مَنْ يَعْمَلُ وَيَكْسِبُ عِيشَهُ بِعَمَلِهِ.. الْجَرْذَانُ الْكَبِيرَةُ تَقْرُضُ لِنَفْسِهَا فَقْطَ، وَتَسْرُقُ غَلَالَ غَيْرِهَا.. أَمَّا نَحْنُ فَإِنَّا نَعْمَلُ لِنَجْعَلُ الْحَيَاةَ أَكْثَرَ سَعَادَةً وَأَحْقَلَ بِالْجَمَالِ..

وَلَكِنَّ الْمَعْوِلَ كَانَ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تَفْتَحُ عَيْنِيهَا جِيدًا لِكُلِّ الشَّؤُونِ الْكَبِيرَةِ مِنْهَا وَالْعَادِيَةِ الْيَوْمَيَّةِ.. حَقِيقَةُ أَنَّهُ يَدْفَنُ رَأْسَهُ أَكْثَرَ الْأَوْقَاتِ فِي رَحْمِ الْأَرْضِ، وَيَجَالُ فِي تَفْتِيَتِ التَّرْبَةِ حَتَّى تَكُلُّ ذَرَاعَاهُ الْمَفْتُولَتَانِ الْعَضْلَاتِ، وَخَصْوصَةً فِي أَيَّامِ الْخَرِيفِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَيْضًا يَرْفَعُ رَأْسَهُ لِلشَّمْسِ، وَيَطْمَحُ أَنْ تَكُونَ الْحَيَاةُ أَكْبَرُ وَأَوْسَعُ، وَأَشَدُ خَصْبًا وَأَفْوَحُ عَطْرًا.. وَمَا كَانَ يَحْتَمِلُ تَلَاقَ الْجَرْذَانِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَسْعَى إِلَيْهِ الْبَيَادِرُ مَوْجَاتٍ إِثْرَ مَوْجَاتٍ لِتَسْرُقِ الْغَلَالِ، فَهِيَ لَمْ تَشَارِكْ فِي الْحَرَثِ وَتَهْوِيَةِ التَّرْبَةِ كَعَشِيرَةِ الْمَعْوِلِ، وَلَا فِي تَذْرِيَةِ الْحَبَّ كَعَشِيرَةِ الْمَذَارِيِّ، وَلَا فِي الْحَصَادِ كَعَشِيرَةِ الْمَنَاجِلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَمَومَةِ مَحْبُوبَتِهِ الصَّغِيرَةِ.

و ذات يوم كان في هم كبير، يلعن الجرذان التي تنتهك كل حرمة، وتترك الأرض خراباً، وإذا به يسمع من بعيد صوت طبل و مزمار. وأخذ النغم يقترب، ولم تثبت أن مرت به كوكبة من المعاول تسير على أقدامها الخشبية الوحيدة بنظام وانتظام على نغم الموسيقى، فملا المشهد قلبه بهجة و فخرأ.. كانت رؤوسها المسطحة وأذرعها الممتدة ذات الشفرات الحادة تلتمع تحت أشعة الشمس فتبهج العين .. وكانت تغنى مرحة على الطريق الرحب .. انقض المعمول يحببها وعيناه غارقتان بالدموع .. لقد سلب عقله بمشهدها، ماذا تحمل معها هذه الكوكبة؟ فرح المستقبل؟ كسر قانون الجرذان؟ لم يتوقف ليتأكد من أي شيء .. إنها قوة وكفى.. ألهمت قلبه، وأحس بقوة مغناطيسية تجذبه اليها، هي ردة الفعل على القدر الذي عاناه، إنه يحمل وسماً في ساقه من جرذ خبيث غافله و قضم منها قضمة.. كان جرذاً جائعاً نهماً لم تترك له سياط الجبة سبيلاً الى الحب، ولا الجرذان الكبار انتشارات البقايا.. وكان ذلك بعد موسم الحصاد.. وفي الفصل الذي توشك فيه أن تكثر أعماله.. وتمر به تلك الكوكبة من المعاول الشامخة الرؤوس تسير بانتظام الى هدف لا يدرى كجهة، ولكن يحس فيه خيره، فلماذا لا يتضمن الى هذا المجهول الذي يحمل الأمل؟ مساعد بحاجة لمن يفتح له بخته، أو يفسر له أحلامه، وما عاد بحاجة لشراء ورقة يانصيب أملاً أن يتخلى عنه نحسه.. إنه يرى مستقبله في هذا المجال واضحًا مستثيراً.. ولو أن طيفاً من الخوف من بذنه من المخاطر التي تتعرض لها حياته من جراء مهنته التي عزم أن يتذمها، فإنه يقول :

- الأعمار بيد الله، والكل أصبح اليوم يتعرض للخطر حتى الأطفال في حجور أمهاتهم.

- لقد قيلوني في صنف المعاول المنتظمة بالرغم من اعتوار سافي، انهم

روا التي اعوص عن فوه سافي بحماسي، فهو ترعيين بي روچا؛
وحضكت المنشارة حتى بان آخر سن في فكها المتلائى المنتظم:

- أيها الأحمق، لا ترى أنتظار منك هذه البايرة منذ أمد بعيد طويلاً؟
- نعم ح المعما، المنشآة، وإنحنا معاه، ومنشارات تعشق، كلما اذ من

الآتي .. وكانوا في البداية كثيري التواضع فأصبحوا موضع الحب والاحترام ..

سرعان ما ادرك معولنا ان نجمة لن يسطع في كوكبة المعاول، فساقه العرّاء كانت تمنعه من الارتفاع في محيط يتطلّب من أفراده بذل جهد عظيم

للتوازن والسير على ساق واحدة. لكنه لم يقصر يوماً في خدمة جماعته، وبذل في

سبيلها كل ما اوني من شساط و حماسه و دباء قطري . وكفاف العذر على صبره وتقانيه و إخلاصه بأنائه الكثر الذين أرسلهم واحداً إثر الآخر إلى كلية المعامل

المنتظمة. ولم يلبثوا أن تخرجوا وأخذوا يرتفون بإصرار وسرعة وصاروا فرحا

للمزيد من المعلومات، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني للجامعة.

البناء، من أجل الزمن الآتي الذي بنت له تمثلاً وعقدت عليه الآمال، وأصبح مصدر إلهامها. فلا يكتب أحد منها رسالة إلا وصدرها بهذه الجملة الشعائرية "باسم الزمن الآتي"، ولم يتخرج أحد من كلية المعاعول المنتظمة إلا بعد أن ينظم قصيدة غراء في تمجيد الزمن الآتي..

ومرت الأيام، ووقف معاعول من الجيل الثاني شامخ الرأس ناصع الجبين، لم يعرف أبداً أسرار الأرض التي نقبت فيها والده وحصل منها على حكمة جليلة، وعرف ما فيها من كنوز وخصب ونماء.

صعد إلى المنبر وقال:

- لقد وجدت لأهدم القديم، كل مهترئ وبال، كل ما هو عقبة وعائق للتقدم.. أسمع همسات عن البناء.. هذا من عمل الأجيال اللاحقة.. أنا السابق والبناء هو اللاحق.. أنا موت الماضي وجنين المستقبل.. أنا ساخته ثائر مدمر لأنني عاشق.. فاغفروا لي قسوتي لأنها الرحمة، واغفروا لي حقدى لأنه حب الأصلاح.. دار الفلك ورمانى، من صلب الفولاذ رمانى، من اقتداره.. هذا أبي الذي أفسر به، ومن رحم النار أمي ولدتي، من نفائها ووجهها، ماضياً، قاطعاً، مصقولاً، لاماً.. وأنا اليوم جسر بين عاصمتين تتصارعان على.. فلا تطلبوا مني المستحيل.. إنني في طريقي لوطن الزمن الآتي..

كان المعاعول يسبير على المنصة ضارباً أرضها بقدمه الخشبية الوحيدة.. ولكنه لم يكن يشبه والده المتواضع، فساقه من الأبنوس المرصع بالحجارة الكريمة، وكتفه من الذهب الخالص، وشفرته القاطعة من الماس.

كانت جماهير المعاعول وعشيرة المناشير تصفق له بحماس كبير معجبة بحكمته، وفصاحته ومرونته..

قال واحد منها:

- هذه عقرية لم نشاهد لها مثيلاً من قبل.. إن العاصمتين تتنافسان لكسب رضانا.. فأي مجد هو هذا المجد لعشيرة المعاعول؟

وصعد المنبر معاعول آخر لا يقل حماساً وقال:

- كل ماله بداية له نهاية. ستة الكون أن إيل يتبعه بعل، فلا تعجبوا أن الأمم لها بداية ونهاية لكل المخلوقات، تتمو وتشب وتشيخ، تحيا وتموت ثم تبعث. هناك من العشائر من تؤمن بأبدية الأشياء، نحن لانعترف بهذا، ولا نقرها عليه.. قال القصب للأرز "أنت أبي، فأبى وجدي إلى الجد السابع تناقلوا أخبارك، وعائالت السنونو سجلت على لقاح الشجر تاريخك. فضحك من قوله المشار". وعلى فكرة إن عشيرة المناشير هي من أكثر العشائر ذكاء، ولهذا أنصح المعاعول أن تتناسبها.. لماذا هي لامعة هكذا؟ لأنها كقس الاعتراف تشهد فصول النهايات.. يبدأ خلق وينتهي خلق، ولكن النيلوفر التي لم تشاهد ولادة الأرض كيف تجزم أنه يموت؟ هكذا يتكون وهم الخلود جهلاً بالتاريخ، وهكذا يتكون التاريخ جهلاً بمن صنعوه. ما أكثر النبوءات وما أكثر المدعين! وما أطول الزمن وما أقصر عقدة الوعي فيه! كل ما له بداية له نهاية، وفي مرآة عصركم نهايات كثيرة..

ولقد لقيت كلمة المعول الثاني من التصفيق والاستحسان مالقيته كلمة الأول وخصوصاً من عشيرة المنشير التي ضمنت بهذه الكلمة تزويج كل بناتها.. لن أتحدث عن كل الخطب التي لقيت في العيد العشرين لعشاق الزمن الآتي.. كانت كلها رائعة إذ فيها نفحة صدق.. ولم يكن بعد قد ظهر بين المعاول ذلك الداء الخبيث الذي عجز أمراء الأطباء عن معرفة أسبابه أو علاجه.. تسللت جيوش الوباء إلى تلك المنطقة الحساسة التي تصل بين النصال والقوائم.. كيف حدث هذا ومتى، غير محدد بالضبط.. وتضاربت الأقوال في هذا الأمر، فمن قائل أنه قانون الوراثة، ولكن هذا القول فيه الكثير من الصلف، إنه كلام حاقد.. إن قانون الوراثة غير كاف كدليل، فالعيوب قد تختفي في جيل لتبرز أحياناً في غيره، وقد تتلاشى بقوية الحياة التي من منهجها تحسين النوع.. إن البداية الجيدة كان عليها أن تتطور لما هو أجود وأحسن.. فلماذا نشب الداء في موضع القلب، في تلك المادة الهمامية اللاصقة التي تصلبت وفتقت دون أن يلاحظها أحد فيقاوم انحلالها في الوقت المناسب قبل أن يستشرى الوباء وتكثر ضحاياه؟

قال قائل أن بوادر المرض ظهرت يوم أخذت المعاول المنتظمة تستورد الأبنوس لصنع قوائمه، وتستورد الذهب لتسبك جذوعها ورؤوسها وأطرافهم العلوية وترضع بالأحجار الكريمة المستوردة هاماتها حسب درجاتها.. فكيف إذن تميز ما بينها؟ وتساءلت العشائر الأخرى حاسدة: "أى لها هذا؟ أتضع اليدي على المصرف الدولي؟ أو أنها وجدت كنزًا لا ينضب؟" وتساءلت: "ترى هل هذه المواد الغريبة المستجلبة قد نقلت إليها العدوى وأفقدتها مناعتها؟.."

والأقوال التي لم ينضب معينها استمرت في التعليق والتأنويل: "بدأت العلة يوم أخذت الأنصال تقطع أشجار الزيتون والأرز والجوز وملايين الأشجار المتمرة، وهاجرت أسراب السنونو منها واستوطنت غابات غريبة".

وقال آخرون بلهجة الواقع: "نقطة التحول بدأت عندما نقضت المعاول عهودها للزمن الآتي" ..

في البدء أحاطت المعاول تمثال الزمن الآتي بسياج عال من الفولاذ المشبك خوف أن يسرقه طامع أو تناله بسوء يد مخربة. غير أن هواجرس المعاول تزايدت فنفلت تمثالها من مكانه في الساحة العامة إلى بناء مهمب متين كالقلعة مغطى بالرخام وتزين بوابته أعمدة جسام، وأوقفوا أمام مدخله حراساً وزرعوا حوله عيوناً. وصار الراغبون برؤية الزمن الآتي يصطافون صفاً طويلاً أمام المبني ويدخلون بانتظام فيحنون هماماتهم أمام التمثال معتبرين عن احترامهم وولائهم ثم يخرجون كما دخلوا بسرعة وهدوء ليفسحوا مجالاً للفوج التالي.. ولكن يبدو أن الغرور أصاب التمثال مع مرور الأيام، وأصبح ثرثاراً مزعجاً لا يكفي عن توجيه النصائح، وأمست نصائحه تخديش آذان من ارتدت من المعاول وتجثم كالرصاص على ضمائرها.. كانت تطرق في البداية متظاهرة بالخجل، ثم أخذت تجادله وتندد رأيه ولا تبالي بفقده، ثم أعلنت الحرب عليه، وانتهت أخيراً بجر التمثال من على منصته وألقته في الفراغ خارج ممتلكاتها.

منذ أن ثبتت المعاول أركان عرশها ونصبت في كل ساحة وزاوية تماثيل الزمن الآتي حتى يوم حطمتها كانت تلاحق كل من يبكي على الزمن الآتي وكل من امتنع وجهه خجلاً من العار الذي تحولت فيه اللوحة الجميلة إلى لوحة للرعب مليئة بالتشوهات. وظنت أنها أصبحت أقوى، وهي غافلة عن الداء الذي يسري في دمها ويتووضع في شغاف القلب.. وسارت متخترة فرحة تدق الطبول والناس تكالى، وتقيم الولائم والحفلات التي ترقص فيها المعاول والمناشير وتطرد غاية الطرب، وتنتصب فيها الموائد بما لذ وطاب، والناس يقفون طوابير للحصول على رغيف..

ولكن الأسئلة الخبيثة الجوجة كانت لا تتفاوت وتتكاثر فتلتقطها الشفاه الترثارة وتلوكها الأسنان الحمقاء.. أسئلة تبدأ دائماً بحرف استفهام لعين ”أين؟“.. تلية، وبالغرابة الأمر، جملة من قاموس المعاول، وكان أحدهم يحاول أن يشوه عامداً هذا العمل الفكري العظيم الذي أبدعه عبقريات قل أن يوجد بها الزمن، ويعطيه بطلال رمادية.

أين الحلم الجميل؟ أين الحرية؟ أين الحياة التي تفتح أمام الجميع كأنها محيط؟ أين فرص التقدم التي تظلل النشاء بأجنحة ملائكة؟ أين العالم الذهبي والسعادة المرجوة لكل العاملين؟ أين المصانع التي تشاد والمدن التي تبني والحقول التي تزدهر والأنعام التي تتکاثر؟ أين العلماء والشعراء والكتاب والمسرحيون والموسيقيون؟ أين رواد الفضاء، أين المبدعون؟..

كل معل ي يريد أن يتحقق بفوج المعاول المنتظمة فيبدل قائمته الخشبية المحلية بالأبنوس، ورأسه وذراعيه الفولاذيين بالذهب الخالص، وكل منشارة تزيد أن تحصل على أسنان ذهبية لامعة.. وفي كل يوم كان هناك استعراض لفوج معاول يكبر ويكبر، وفي كل ليلة كانت هناك مقابلة مع منشارة تزيد أن ترى صورتها الجميلة على الشاشة الصغيرة.

أدمنت المعاول ذات الأنصال الذهبية على المشي المقلوب المنظم في استعراض مسرحي على سيقانها الأبنوسية، وما عادت ترغب في الوضع الطبيعي بل لم تعد قادرة عليه، أن تشق باطن الأرض وتتجذر البراعم الصغيرة المجنحة للخشب الآتي.. لا أحد يرغب في مهنة متربة شاقة لا تطعم من جوع الكل يطمح إلى نصل ذهبي وقائمة من الأبنوس المرصع بالجواهر مستوردة كلها، وبزوجة من عشيرة المناشير بأسنان ذهبية تدر عليه الخير الوفير.

كانت أسراب المعاول والمنشارات منتشية بظفرها، تعب الشراب حتى الثمالة، وما عادت تفرق بين ما هو صالح للحياة وما هو ضار بها، بل أصبح لها مقاييس واحد: عدو لها كل ما يعيق متعها المشروعة والمحرمة.. وكانت تعمل شفاتها الحادة وأسنانها المزكزة في الشجر المثمر، وتسكب الاسمنت فوق بوادر الزرع لتعبد الساحات للرقص والتمارين الرياضية، وكم سهرت المعاول الليالي تدق بآقدمها الصلبة الأرض، والمنشارات تتمايس وتتصدر أسنانها موسيقى طروب.

كانت ذات ليلة في العراء، والقمر بدر يضيء الساحة كالنهار. وفجأة تجمعت الغيوم وحجبته.. جرى ذلك بالتدرج دون أن تتبه له، ولما وجدت نفسها في ظلام استاءت وتهامست: "لابد أن الزمن الآتي ينبعض على فرحي؛ إنه ينقم على سعادتي وهو محطم في العراء" ..

وما لبثت أن سرت بينها الإشاعات، لا يدرى أحد أهي صادقة أم من بنات خيالها.. قيل أن نثارات التمثال كانت تتجمع بجازبية القمر وهو بدر.. وقيل أنه يحرض الغيوم كي تتكاثف وتحجبه. ولم يتبه أبداً مروجو الإشاعات أن تلك الأقوال متناقضة، دافعها النزق وسوء النية، وأن غايتها تحمل التمثال ذنبـاً لم يرتكبها ولا هو قادر عليها.. فمن يراه يرى كومة من الحجارة، لاشك لها يمتنع النظر ولا روح تلهم.. ومع ذلك كان هناك من يسمع له وشوشات، وأضاف آخرون بأنه يتكلم بصوت واضح النبرات. وجاء فصل شتاء كان قاسياً، ومتى كان الشتاء رحيم؟ هبت ريح عاصفة، وأبرقت السماء ودحرجت بردأ بحجم الجوز.. لماذا فعل الشتاء ذلك في يوم احتفال، فقرع الرؤوس المسطحة والأسنان الذهبية اللمعة فاضطرت للاختباء تحت سقوفها. لقد اصطكت أسنانها وانتابها ذعر أفسر مضجعها، فصبت نقمتها على الزمن الآتي..

لم تشاهد بأن الشتاء ورياحه العاصفة قد قلع خياماً كثيرة وترك أصحابها في العراء تماماً، لاسقف يحميها ولا عنون ينقذها.. وفي ذلك الشتاء القاسي غرفت سفن كثيرة وسقطت طائرات، وحدات قطارات عن مساراتها وانقلب براكبيها، وغرقت مدن في السيول. أما المعاول والمناشير فإنها نقمت على الشتاء لأنـه حرمتها من متع الاحتفال.. ونقمت على الزمن الآتي، وظنت به الظنوـن.. إن جماعة منها تسمع هديره في العاصفة "وـيل للعاتي من غضـب الزـمن الآـتي". وما كان ما سمعته إلا شعور الإثم الراـبـضـ في مكان خـفـيـ في معدـنـهاـ، الاـ أنـ الخـوفـ جعلـهاـ تـسمـعـ صـوـتهـ فيـ عـوـيـلـ الـرـيـحـ بلـ حـتـىـ فيـ كلـ زـفـرـةـ بـيـنـ أـورـاقـ الشـجـرـ فيـ فـصـولـ الإـزـهـارـ وـالـإـثـمـارـ .. فـتـةـ تـسمـعـهـ يـقـولـ: "ـوـيلـ لـلـمـرـنـدـةـ كـانـزـةـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ"ـ،ـ وأـخـرـىـ:ـ "ـإـلـىـ أـيـ مـصـيـرـ تـجـريـ تـجـرـيـ المـعـاـولـ وـالـمـنـاشـيرـ؟ـ"ـ ..ـ

وأصبحـتـ تلكـ الأـصـواتـ الغـيـبـيـةـ شـوـكـةـ فـيـ أـسـرـتـهاـ تـجـزـىـ نـوـمـهاـ فـتـهـبـ بـيـنـ الفـيـنـةـ وـالـفـيـنـةـ تـقـلـبـ الـفـكـرـ عـسـىـ أـنـ تـصـمـتـهاـ،ـ وـذـهـبـتـ جـمـاعـةـ مـنـهاـ وـفـرـقـتـ كـوـمـةـ الـحـجـارـةـ وـذـرـتـهاـ فـيـ كـلـ أـنـحـاءـ الـأـرـضـ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ كـانـ الزـمـنـ الآـتـيـ يـغـلـبـهاـ وـيـقـتـحـمـ أحـلـامـهاـ وـيـخـتـرـقـ آـذـانـهاـ،ـ فـمـذـ حـطـمـتـ تـمـثـالـهـ أـصـبـحـ رـوـحـاـ لـاجـسـدـ لـهـ،ـ وـأـصـبـحـ أـقـوـىـ،ـ وـأـصـبـحـ أـمـنـ،ـ إـذـ لـاـيمـكـنـ لـهـ أـنـ تـنـزـلـ بـهـ مـوـتاـ ثـانـيـاـ.ـ كـانـ يـخـيفـهاـ وـيـدـمـرـ مـنـاعـتـهاـ فـيـثـيرـ بـالـتـالـيـ غـضـبـهاـ وـنـقـمـتهاـ.

كان هناك مـعـولـ يـمـهـنـ الـعـرـافـةـ وـيـفـسـرـ الـأـحـلـامـ.ـ وـقـدـ زـادـ الإـقـبـالـ عـلـيـهـ مـنـذـ أـخـذـتـ مـخـاـوفـ الـمـعـاـولـ وـالـمـنـاشـيرـ تـأـخذـ شـكـلـ كـوـاـبـيـسـ تـقـضـ مـضـجـعـهاـ،ـ فـتـأـتـيـ إـلـيـهـ ليـتـبـأـ لـهـ وـيـفـسـرـ أـحـلـامـهاـ.ـ وـكـانـ يـعـيـشـ فـيـ مـنـزـلـ،ـ وـلـمـ يـنـسـ مـهـنـتـهـ الـقـدـيمـةـ وـهـيـ الـغـوـصـ فـيـ التـرـبـةـ وـتـقـتـيـتـ مـاـ صـلـبـ مـنـهاـ لـتـنـفـسـ الـأـرـضـ وـيـقـرـجـ خـصـبـهاـ.ـ وـكـانـتـ حـولـ مـنـزـلـهـ وـهـوـ كـوـخـ مـنـ جـذـوعـ الـأـشـجـارـ،ـ مـغـطـىـ بـالـقـشـ الـمـجـبـولـ بـالـطـينـ وـالـمـجـفـ بالـشـمـسـ،ـ حـدـيـقـةـ تـبـهـرـ الـعـيـنـ بـتـنـوـعـ زـهـورـهاـ وـأـشـجـارـهاـ الـمـثـمـرـةـ..ـ لـقـدـ سـمـعـ

بوعي وحكمة ما يدور في هذا العالم الذي نبذه، وكان في البداية يرفض أن يتلاصق المال على مشورته، ولكن لم يلبث المسؤولون أن كثروا على بابه، فكان يأخذ من مال المذعورين باليمين ليعطيه للمعززين بالشمال.

ظن أن القلق والهواجس التي تعاني منها المعاول والمنشير تعود إلى شعور بالذنب ثقيل يجثم فوق صدورها. وأن سببها هو المعاملة الفظة الجائرة التي ذهب ضحيتها تمثال الزمن الآتي فكان ينصح كل معول أو منشاره أن يتخل عن أنايته وعصبيته، ويلطف حاله بتواضعه وسلوكه، ويتبني الزمن الآتي ..

أما ما جرى بعد ذلك فلم يكن المعول العراف مسؤولاً عنه.. نصح جماعته ملخصاً وتحت مراراً وبحماس ودون كمل، وكان يبتلي صدره أنها تصغي إليه باهتمام وتهز رؤوسها موافقة على كل كلمة ينطقها. وكلما انصرفت من حضرته فتة فرك يديه بسعادة وحدث نفسه: "سوف تعود الأمور إلى نصابها، لا بد أن تعود" ..

وقف معول مغرور ذات يوم خطيباً وقال: "أنا البداية والنهاية، لم يكن كون من قبلي ولن يكون من بعدي كون. أنا فضيلة الاستقرار الأبدى. أنا المصنون بكل الشرائع، الممنطق بالقوانين، المدجج بالمشافر.. أنا حاد قاطع فلا تتحدىاني الشجر ولتحذرني، إن بينهن من يوشون ولا أحب وشوشتهن، وبينهن من تتآمر مع الرياح وأنا عدو لها، ومع الغيوم وأنا خصمها.. أنا جئتكم من البعيد البعيد، أنا الزمن الآتي!" ..

وأخذت المعاول والمنشارات تقطع كل شجرة توشوش للريح، حتى تلك التي تناجي نفسها، وكانت تنقرز في البداية من البتر العشوائي وخصوصاً أنها لا تخرج دائماً سليمة من هذه العمليات. وكثيراً ما خسرت سناً أو ثلم لها نصل أو انخلع لها فص أو انكسرت قدم. ثم أخذت تتفنن النفس بضرورة إعطاء العبر، ثم أصبح البتر عادة، ثم غداً متعة ولذة. لكن الداء الوبييل ما انفك يفعل فعله فيها، وكثيراً ما انقسم ظهر معول أو انفصمت أسنان منشاره من فكها وتقاعداً في زوايا البيت.

* * *

جلس ذات يوم معول عجوز قرب منشارته، هو نفسه معولنا الذي أحب المنشاراة من النظرة الأولى لأنها تفهمه ولأنها تصلح أن تكون رفيقة حياته، ولأنهما معاً يعشقان الزمن الآتي.

كان حزيناً، مريضاً، موجعاً، مثلوم الشفرات، واهن القوى، وساقه المُعَتَورَة انخلعت عنها فصوص الجواهر، وما عليها إلا الفجوات تحمل تاريخها. وكانت هي قد خسرت كل أسنانها التي طالما شعشت في صحفة مجلة صادرة من القلب العamer بحب الحياة.. أخذنا يتلاجيـان بصوت خفيف، لماذا فشل معول الزمن الآتي وذريته في أن يثبت جسر مملكته القائم بين عاصمتين ويتوـج نفسه ملـكاً عليها؟ لماذا انهار الجسر سريعاً؟

ولم يرفا جواباً. فهما من جيل قديم، وقد تخطتهما الأحداث والمتغيرات
التي هي من طبيعة الأشياء فتبليلاً.

* * *